عبد الله بن الزبير، والحجاج بن يوسف الثقفي

"أما آن للفارس أن يترجل".

الفارس هو عبد الله بن الزبير.. ونده ليس عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الذي قتل في عهده، بل هو مدمر دولته، والشخصية الأكثر إثارة للجدل في تاريخنا الإسلامي.. الحجاج بن يوسف الثقفي.

في بيتٍ من أكرم بيوت العرب وأنبلها نسبًا وشرفًا، ولد عبد الله بن الزبير في العام الثاني للهجرة، فأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفًا في سبيل الله وحواري رسول الله، صلوات ربي وسلامه عليه، وأمه هي أسماء بنت أبي بكر الصديق وذات النطاقين، وجده لأمه هو أبا بكر الصديق صاحب رسول الله وأول من أسلم من الرجال وأول خليفة للمسلمين، يعد أول مولود للمسلمين في المدينة بعد الهجرة، وكان فرح المسلمين بولادته كبيرًا، وسعادتهم به طاغية، لأن اليهود كانوا يقولون إنهم سحروا للمسلمين حتى لا يولد لهم ولد بالمدينة ولا يتكاثروا، فكانت ولادة عبد الله دليلًا على كذب اليهود.

نشأ عبد الله بن الزبير نشأةً طيبة، وتنسَّم منذ صغره عبق النبوة، وكانت خالته السيدة عائشة تعتني به وتتعهده، حتى كنيت باسمه فكان يقال لها "أم عبد الله"، لأنها لم تنجب ولدًا، وكان في عبد الله منذ صغره ميلٌ للزعامة ورغبةٌ في القيادة، وتنبأ له الفاروق عمر بن الخطاب بمستقبل باهر، لما رأى من رباطة جأشه وثبات قلبه واعتداده بنفسه، فقد مرَّ عمر بعبد الله وهو يلعب مع رفاقه من الصبيان فأسرعوا يلوذون بالفرار هيبةً لعمر وإجلالًا له، في حين ثبت عبد الله بن الزبير ولزم مكانه، فقال له عمر: "مالك لم تفر معهم؟"..

فقال عبد الله: "لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقًا فأوسع لك".

لم يكن غريبًا على من نشأ هذه النشأة الصالحة أن يشب محبًا للجهاد، فشهد وهو في الرابعة عشرة من عمره معركة اليرموك الشهيرة، واشترك مع أبيه في فتح مصر، وأبلى بلاءً حسنًا وخاض عمليات فتح شمال إفريقيا تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، في عهد عثمان بن عفان، وأبدى من المهارة والقدرة العسكرية ما كفل للجيش النصر.

عندما حوصر الخليفة عثمان بن عفان في بيته، كان عبد الله بن الزبير في مقدمة المدافعين عنه ضد الخوارج، وشهد موقعة الجمل مع أبيه الزبير وطلحة بن عبيد الله والسيدة عائشة، ولما بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة أحسن إلى عبد الله بن الزبير واستماله إليه وأكرمه، وكان هذا صنيعه مع كبار الصحابة وأبنائهم، وترتب على ذلك أن هدأت الأحوال واستقرت الأوضاع بعد الفتنة العارمة والرياح الهوجاء التي كادت تعصف بالدولة وتهدد أمنها ووحدتها، قابل ابن الزبير هذا الإحسان والإكرام من معاوية بحسن الطاعة والثناء عليه، واشترك في الغزوات والفتوحات التي قامت في عهده، فغزا إفريقية تحت قيادة معاوية بن حديج، وشارك في فتح القسطنطينية مع الجيش الذي قاده يزيد بن معاوية.

ظلَّت العلاقة بين معاوية وابن الزبير على أحسن ما تكون، حتى بدأ معاوية في أخذ البيعة بالخلافة لابنه يزيد من بعده، فقاد ابن الزبير حركة المعارضة لهذه الخطوة التي تحول الخلافة من الشورى والانتخاب إلى الملك والتوريث، ولم ينجح معاوية في إقناع هؤلاء المعارضين من أبناء الصحابة في مبايعة يزيد، فلجأ إلى الشدة والعنف في سبيل تحقيق ذلك، إلا أنه لم ينجح مع الجميع.

عندما تولى يزيد بن معاوية الخلافة، حرص على أخذ البيعة من الأمصار الإسلامية، فلبَّت نداءه وبايعته دون تردد، في حين استعصت عليه بلاد الحجاز، حيث يعيش أبناء الصحابة الذين امتنعوا عن مبايعة يزيد، وكان في مقدمة الممتنعين الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، غير أن يزيد بن معاوية ألح في ضرورة أخذ البيعة منهما، ولو جاء الأمر قسرًا وقهرًا لا اختيارًا وطواعية، ولم يجد ابن الزبير مفرًا من مغادرة المدينة والتوجه إلى مكة والاحتماء ببيتها العتيق، وسمى نفسه "العائذ بالبيت"، وفشلت محاولات يزيد في إجباره على البيعة.

بعد استشهاد الحسين بن علي في معركة كربلاء، التف الناس حول ابن الزبير وزاد أنصاره سخطًا على يزيد بن معاوية، حاول يزيد أن يضع حدًا لامتناع ابن الزبير عن مبايعته، فأرسل إليه جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة، غير أنه توفي وهو في الطريق إلى مكة، فتولى قيادة الجيش الحصين ابن نمير، وبلغ مكة وحاصر ابن الزبير أربعة وستين يومًا دارت خلالها مناوشات لم تحسم الأمر، وفي خلال هذا الصراع جاءت الأنباء بوفاة يزيد بن معاوية، فسادت الفوضى والاضطراب في صفوف جيش يزيد.

توقف القتال بين الفريقين، وعرض الحصين بن نمير على ابن الزبير أن يبايعه، لكن ابن الزبير رفض هذا العرض الذي لو قبله لربما تم له الأمر دون معارضة، لأن بني أمية اضطرب أمرهم بعد موت يزيد من معاوية ورفض ابنه معاوية بن يزيد تولي الأمر، ثم لم يلبث أن توفي هو الآخر بعد أبيه مباشرة، ويقال: إن السم قد دُس له من أقاربه، حتى يظل لهم حق بالمطالبة بالخلافة، وتبقى في بيت بني أمية.

أعلن عبد الله ابن الزبير نفسه خليفةً للمسلمين عقب وفاة يزيد بن معاوية وبويع بالخلافة، ودخلت في طاعته ومبايعته معظم الولايات

مثل الكوفة والبصرة ومصر وخراسان والشام معقل الأمويين، ولم يبق سوى الأردن على ولائه لبني أمية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي.. ولم يلق ابن الزبير تحديًا في بادئ الأمر، فهو صحابي جليل تربى في بيت النبوة واشتهر بالتقوى والصلاح والزهد والورع والفصاحة والبيان والعلم والفضل، وحين التفت المسلمون حولهم، لم يجدوا خيرًا منه لتولي هذا المنصب الرفيع.

غير أن هذه الملكات لم تكن وحدها كفيلةً بحسم الأمر له على الرغم من مبايعة معظم العالم الإسلامي له، فقد كانت تنقصه أشياء لا تعيبه ولا تعيب خلقه، لكنها كانت من ضرورات عصره كاستمالة الناس وحشد الأتباع والأعوان ببذل الأموال والإغداق عليهم جذبًا لهم، وإشاعةً للفرقة وشق الصفوف بين الخصوم، وهذا الأمر ما نجح فيه خصومه من بني أمية وعجز هو عن مجاراتهم فيه.

بدأ ابن الزبير خلافته في مكة وهي على قداستها وعظمتها لم تكن تصلح عاصمةً لدولةٍ مترامية الأطراف، وترك دمشق التي كانت تتوسط العالم الإسلامي وتمتلئ بالرجال والمال.. ثم أقدم على خطوة كان فيها حتفه ونهاية خلافته، حين أخرج معظم رجال بني أمية من المدينة وكان فيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، وهو ما أعطاهم الفرصة من التوجه إلى الشام وجمع شمل الأنصار والأعوان الذين حضروا من كل مكان، عقدوا مؤتمرًا في الجابية وبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة، لو كان ابن الزبير يعلم الغيب لأبقى بني أمية في المدينة تحت نظره ومراقبته، وكان في مقدوره أن يفعل ذلك ولا يعطيهم الخطوة الأولى التي كان لها شأن في انطلاق بني أمية لإعادة الخلافة لهم والقضاء عليه.

استهل مروان بن الحكم أمره باستعادة الشام التي كان معظم أقاليمها قد بايع ابن الزبير، بعد أن نجح في هزيمة أنصار ابن الزبير وقتل قائدهم الضحاك بن قيس في معركة مرج راهط، ثم أعقب ذلك

بالاستيلاء على مصر وولى عليها ابنه عبد العزيز، وزوده بالنصائح المهمة، وقفل راجعًا إلى الشام ليواصل جهوده في الزحف نحو العراق.

توفي مروان بن الحكم وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، وكانت الشام ومصر تحت سلطانه، في حين بقيت الحجاز والعراق تحت سيطرة ابن الزبير، وفي خلال ذلك ظهرت دعوة المختار ابن أبي عبيد الثقفي التي اجتذبت الشيعة وانضموا تحت لوائه وازداد نفوذه بالعراق بعد أن هزم جيشًا أرسله عبد الملك بن مروان بقيادة عبيد الله بن زياد في معركة الخازر، وبعد تلك الهزيمة توقف عبد الملك بن مروان مؤقتا عن فكرة استعادة العراق لعلمه أن عبد الله بن الزبير لن يترك المختار الثقفي يستبد بالعراق، وأن الصدام بينهما آت لا مفر منه، فآثر الانتظار حتى يفرغ أحد الطرفين من الآخر، فيقابله وهو منهوك القوى، فيضمن لنفسه الظفر والفوز، وهذا ما كان فاصطدم مصعب بن الزبير بالمختار الثقفي، وقضى عليه مستعيدًا لنفوذ أخيه في العراق.

عزم عبد الملك بن مروان على استعادة العراق التابعة لدولة ابن الزبير، فخرج إليها بنفسه بعد أن اطمأن إلى تثبيت أركان دولته وتوطيد حكمه، وأعد جيشًا عظيمًا لهذا اللقاء الفاصل، علم مصعب بن الزبير، والي العراق، بهذه التحركات، فاستعد لمواجهة عبد الملك بن مروان، وقبل اللقاء الفاصل أخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق ويعدهم ويمنيهم بالمال فاستجابوا له وانضموا إليه وتخلوا عن مصعب في أدق المواقف وأصعبها، فانهزم في المعركة التي دارت بين الفريقين عند دير الجاثليق، وقتل في هذا اللقاء بعد أن بذل ما يمكنه من الشجاعة والبسالة، وبعد انتهاء المعركة دخل عبد الملك الكوفة وبايعه أهلها، ودخلت العراق تحت سيطرته، وعين أخاه بشر واليًا عليها.

كان ضياع العراق من يد عبد الله بن الزبير، أكبر كارثة حلَّت به في الوقت الذي قوي فيه خصمه بانضمام العراق تحت ملكه وسلطانه الذي أصبح يضم معظم أقطار العالم الإسلامي، وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز.

لم يضيع عبد الملك بن مروان الوقت في الانتظار، بعد انتصاره على مصعب بن الزبير، فأعد حملةً عسكريةً في عشرين ألف جندي ووجهها إلى الحجاز للقضاء على ابن الزبير المعتصم بمكة الذي لم يكن بمقدوره الصمود، بعد أن فقد معظم دولته ولم يبق له سوى الحجاز، وسلم قيادة ذلك الجيش لرجلنا الآخر.. الحجاج بن يوسف الثقفي.

والحجاج ولد في منازل ثقيف بمدينة الطائف في العام الحادي والأربعين من الهجرة.. وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج، نشأ في الطائف وتعلَّم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه يعلم الفتية القرآن والحديث ويفقههم في الدين، لكنه لم يكن راضيًا بعمله هذا على الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه وكان معروفًا بحسن العبادة، وكان غيورًا على القرآن، وكان الحجاج بعيدًا كل البعد عن الملذات زاهدًا عن المال، وكان صاحب مواعظ بليغة معروف ببعده عن صفات النفاق الثلاثة وكل هذه الصفات لا ينفي أنه كان مغاليًا في التكفير، أي أنه كان يفعل ما يفعله تقربًا لله، حتى ما فعله عندما انضم لجيش عبد الملك بن مروان وتوجه لقتال ابن الزبير.

توجَّه الحجاج إلى الحجاز ونزل الطائف، وأخذ يرسل بعض جنوده لقتال ابن الزبير، فدارت بينهما عدة اشتباكات، كانت نتيجتها في صالح الحجاج، ثم تقدم إلى محاصرة عبد الله بن الزبير ونصب المنجنيق على جبل أبي قيس، وبدأ في تصويبهم ناحية مكة وبيتها العتيق، فلما أهلَّ ذو الحجة، لم يستطع ابن الزبير أن يحج، وحج بالناس عبد الله بن

عمر، وطلب من الحجاج أن يكف عن ضرب الكعبة بالمنجنيق؛ لأن الناس قد امتنعوا عن الطواف، فامتثل الحجاج، وبعد الفراغ من طواف الفريضة، عاود الحجاج الضرب حتى تهدَّمت الكعبة، وأعاد ابن الزبير بناءها من جديد.

تشدد في حصار ابن الزبير، حتى تحرج موقفه وانصرف عنه رجاله ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما، فلما رأى عبد الله بن الزبير ذلك، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر -وكانت قد بلغت من الكبر عتيًا- حزينًا يشكو إليها ما هو فيه من هم وحزن، فشدت من أزره وأوصته بالصبر والثبات وعدم التراجع ما دام على الحق، فخرج من عندها وذهب إلى القتال ليستشهد في المعركة، وبوفاته انتهت دولته التي استمرت نحو تسع سنوات، قطع رأس ابن الزبير، وأرسل إلى عبد الملك بن مروان.. وصلب الحجاج بدنه منكسًا عند الحجون بمكة، واستباحها مع المدينة لثلاث أيام، وظل جسد ابن الزبير مصلوبًا حتى مرَّ به عبد الله بن عمر فقال: "رحمة الله عليك يا أبا خبيب، أما والله لقد كنت صوامًا قوامًا".. ثم بعث للحجاج قائلًا: "أما آن للفارس أن يترجل؟".. فأنزل ودفن هناك بعد أن صلى عليه أخوه عروة وأمه أسماء بنت أبي بكر، والتي توفيت بعده بأشهرَ قليلة.

تولى الحجاج بعد ذلك ولاية مكة، وفعل في أهلها الأفعال الشنيعة التي يفضَّل عدم ذكرها في موضعنا هذا، وبوفاة ابن الزبير، انتهت آخر المعارضة التي لقيها بنو أمية لتثبيت أقدامهم في حكم بلاد المسلمين.

رحم الله ابن الزبير الخليفة الذي يخشى البعض، أو يتناسون وضعه بين الخلفاء.